الفن ليس هو الحياة

بقلم أندريه موروا .

«قل الحقيقة كلها[1]، ولكن قلها بطريقة مائلة ، غير مباشرة »، هذا ما قالته الشاعرة الاميركية امبلي ديكنسون Emily Dickenson، وهو يثير العجب للوهلة الاولى .

ولكننا ندركه تماماً إذ نفكر بروائع الآثار . أجل ، ان على الفنان ان يقول الحقيقة كلها عن الانسان ، إبتداءً منه هو نفسه ، لانه إنما يعرف الآخرين عبر ذاته ، ولكن اذا حاول ان يقول ذلك بطريقة مباشرة أكثر مما ينبغي ، فان حركة انعكاسية تشله . تأمّل حكمة مارسيل بروست : فقد شاء ان يتحدث بكل صراحة عن المثلية الجنسية ، فحاذر ان يجعل من البطل ، الذي يمثل المؤلف في نظر القارىء ، شخصاً شاذاً جنسياً . إن « آنا » الرواية تتأمل هذا الدرام من الخارج ، ومن هنا تتجلى الحقيقة الرائعة لاشخاص شارلوس وسانلو . والحق ان بوسع الفنان ان يقول كل شيء ، اذا قنّعه . وقد كان فلوبير يقول « ان مدام بوفاري هي انا » ، واذا امتنع بروست عن ان يقول « ان مدموازيل فانتوي هي انا » فان عنف اللهجة ينم عن هذه الحقيقة .

على ان عدداً من الروايات الرائعة قد كتبت بضمير المتكلم « كادولف » و « دومينيك » و « سوناتة كروتزر » . وان بعض المذكرات (كمذكرات ريتز وسان سيمون) هي آثار فنية . هذا صحيح ، ولكن ينبغي لنا ان نورد هنا بعض الملاحظات المفيدة . ففي هذه الروايات اهتم المؤلف (بروست مثلاً) في ان ينفصل عن البطل الرئيسي : « ان « انا » هذا الكتاب ليست انا » . وليست « سوناتة كروتزر » في الظاهر اعترافاً من ليون نيقولايفيتش تولستوي ، ولكنها حكاية رواها رجل تم لقاؤه في قطار . فان « الانا » هنا ذات زنبركين .

والطريقة نفسها قد استعملت في « دومينيك » . واما رواية « أدولف » الرائعة ، فان حشمة الراوي محفوظة فيها بسبب من رصانة اللهجة . وهذه الغراميات جميعها قد رُويت بدون اي مزيج شهواني . والحق ان مؤلفاً مثل كازانوفا يتبسّط ملتذاً بوصف الخبايا الجسمانية ، يضايقنا غالباً . انه يسلينا ، ويقلقنا ، ولكنه لا ينال منا ابداً الاحترام والحب اللذين لا يستطيع كاتب بدونهما ان يصبح كاتباً محبوباً ونموذجياً في وقت واحد . وان ستاندال يظل في قصتيه « لاشرتروز دوبارم » و « الاحمر والاسود » اعظم منه في قصته «حياة هنري برولار» التي تنقصها الانارة المائلة .

وإن نظرية «قل الحقيقة كلها، ولكن قلها بطريقة مائلة غير مباشرة » تذهب الى ابعد من ذلك وتشمل فنوناً اخرى . فحين يستطيع الفنان ان يسجل فكرة أو حدثاً من غير ان يمثّلها بطريقة مباشرة ، يحصل غالباً على نتيجة طيبة . من اجل ذلك يعمد المخرجون السينمائيون الى استبدال الواقعية الواضحة بالايحاء غير المباشر كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً . فان انطلاق القطار الذي يحمل المرأة الحبيبة مثلاً هو اشدّ تأثيراً، إذا ادركنا فرار الحافلات المضيئة بواسطة ما تعكسه من انوار على المحطة ، مما لو رأينا القطار نفسه يجري على سكة . وإن شبح اللص على الجدار اشد رهبة من وجهه الواضح .

لقد اكتشف الشعراء منذ وقت طويل ان الرمز ، او استبدال الشيء المعنيّ بالاشارة ، هو ينبوع جمال . وكذلك يصبح المخرج السينمائي اليوم رمزياً . فقد اخرجت اخيراً عدة افلام عن شاتوبريان وبلزاك لا يظهر فيها هذان البطلان ابداً على الشاشة ، ومع ذلك فان هذه الافلام تظهرهما لنا اشد حياة مما لو تقمصهما ممثل على الشاشة . ولماذا ، ترى ، تؤثر فينا الاشارة؟ إن لذلك سببين : إننا في الواقع نتصل بالكائنات والاشياء بالاشارات . وإن الشيء المحسوس (هذه الشمعة التي تنطفىء) يؤثر فينا اشد مما تؤثر فينا فكرة الموت المجردة . ثم إن المشاهد او القارىء يجدان لذة كبيرة ودقيقة في ان يحزرا بنفسيهما اويفهما .

وإن من الأخطاء الكبرى التي يقع فيها مؤلفو الروايات (السوداء) او الافلام السوداء انهم يريدون ان يظهروا لنا ، بواقعية مزعجة وساذجة ، ابشع المناظر والأحداث التي تتمخض عنها الحياة . والحق ان النفور المادي ليس شعوراً جمالياً ، إن الفن لا يمكن ان يكون هو الحياة ، وانما هو تمثيل للحياة . « إن على الفن ان يعطي المشاهد ما تمنعه الحياة عن الانسان ، اتحاد التأمّل والعمل . » هذا ما يقوله سانتايانا Santayana . ولكي يظلّ هذا التأمّل صافياً ، فينبغي ان يكون التمثيل غير مباشر .

قل الحقيقة كلها ، ولكن قلها بطريقة مائلة . إن الخشونة والنظافة ، في الفن كما في السياسة ، اعتراف بالعجز .

« تعريب الآداب »

* راجع العدد ١٣٨٦ من مجلة « Les Nouvelles Littéraires »